كتاب الشهر

الاسلام والرأسمالية

بقلم خليل أحمد خليل

اظهرت الدراسات العلمية صعوبة الخوض في معالجة معضلات البلدان المتاخرة تكنيكيا وصناعيا ، الا ان مشكلة البحث تصير اكثر تعقيدا حينما يتعرض علماء الاجتماع لدراسة مجتمع كالمجتمع العربي لعب الاسلام دورا رئيسيا في ارساء قواعده الحقيقية وخلق دولة عربية في ظل الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان . وقد قام البحاثون عربا وجانب بتحقيق دراسات تتراوح في الاهمية . ونحن لا ننوي هنا الحديث عن الدراسات العربية حول دور الاسلام في تطوير النظام الاجتماعي ، السياسي ، القضائي ، الاقتصادي والفكرو تكنيكي عند العرب . الا اننا نشير الى ضرورة الاطلاع على كتاب « الاسلام تجاه تحديات العصر » للدكتور حسن صعب وقد صدر عن دار الاداب ١٩٦٥ . ولما كنا لم نقرأ هذا الكتاب ، فاننا لا نسمح لانفسنا باصدار أي رأي فيه . ولكننا وقد قرأنا فصلا منه قد نشر في عدد تشرين الاول ١٩٦٥ من الآداب ص ٨ : وندوة بعنوان الاسلام عدد شباط ١٩٦٦ ، نسمح لانفسنا ان نتصور ان هذا الكتاب يعالج مشاكل عامة : تحديات العصر . وان الذي يعالج هذه التحديات هو مسلم وعالم . اما الكتاب الغربيون فمنهم المطلع ومنهم المستشرق . فالمطلعون هم عبارة عن جامعيين لهم مستوى محدود من الثقافة والاختصاص الغربي ، قرأوا بعض كتب عن العالم العربي والعقدة الاسلامية فسمحوا لانفسهم باصدار كتب مليئة بالاغلاط الناتجة عن جهلهم بحقيقة الامور لا عن قصد الاساءة الى الامة العربية . من هؤلاء نورد جاك اوستروي الاقتصادي الفرنسي الشهير في كتابه L'Islam face à son dévelopement وسواه من السائحين الذين يقفون عند سطحيات المشاكل ، وانى لهم ان يغوصوا وهم لا يعرفون شيئا من لغتنا ولا من حضارتنا ؟ اما المستشرقون فهم بلا ريب علماء حقيقيون واكثر جدية من الصنف المذكور آنفا . ونستطيع ان نميز بين المثقف المزيف والمثقف الحقيقي . ويعرف المثقف عموما كما يلي : هو الانسان الذي يعتمد الفكر والثقافة بدرجة اولى في حياته ، وهو اخصائي في هذا المجال النظري دون سواه . الا ان هذا التعريف قد لاقى صعوبات واعتراضات شتى . فاين نضع طبيب الاسنان مثلا ؟ فهو على اطلاع نظري واسع ويمارس مهنة عملية جدا . وقد اتى الكاتبان فريدريك بون وميشال انطوان بورنيه بفهم اخر للمثقف يلقي ضوءا جديدا على مشكلة التعريف اذ نشرا مقالا مجتزءا من كتابهما « المثقفون الجدد » في مجلة « الازمنة الحديثة » عدد ٢٤١ بعنوان ، المثقفون في المجتمع . وقد ميزا بين المثقف الحقيقي والمثقف المزيف . الحقيقي هو اليساري الذي يناهض اليمين الحاكم وما يتبعه من رجعية وظلم واستغلال . ومثال ذلك الفيلسوف الكبير جان بول سارتر . المزيف هو اليميني التقليدي المؤكد للحكم الرجعي ومثال ذلك البروفسور ريمون آرون استاذ علم الاجتماع السياسي في السوربون ، هذا توضيح ولن نشغل نفسنا بهذه المشكلة الجوهرية ، الا اننا نشير الى ان الطابع السياسي غلاب على هذا الفهم .

اما اصدقاؤنا المستشرقون فيمكن تصنيفهم كما يلي : فهم يمينيون ، معتدلون ويساريون ، اهم ما يميز بعض اليمينيين ازدراء الحضارة العربية ووصفها بالعقم والقول بان الانسان العربي غير قادر على التجدد والتطور . من هؤلاء نذكر شارل بيللا في كتابه « اللغة والادب العربي » منشورات كولان ١٩٥٢ ، باريس (في الخامسة مثلا L'inaptitude des Arabes à se renouveler اما المعتدلون فهم في حالة تردد ينظرون الى الماضي نظرة مقبولة : « العصر العباسي » خصوصا ، الا انهم يسيئون طرح مشكلاتنا الجديدة وبالتالي يسيئون ايجاد حلول لها . منهم جاك ريسلر في كتابيه « الحضارة العربية » و « الاسلام الحديث » مكتبة بايو . اما اليساريون فهم ماركسيون غالبا واشتراكيون على الاقل . ومنهم عالم الاجتماع البروفسور مكسيم رودينسون . عالم اجتماع ومستشرق ، ولد في باريس عام ١٩١٥ ، واقام مدة سبع سنوات في الشرق الادنى . استاذ الاثيوبية والحميرية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في الصوربون واستاذ الاثنولوجيا . وهو مناضل تقدمي ، ضد الاستعمار ، ادار مجلة « الشرق الاوسط » ونشر عدة مقالات عن الشرق المعاصر ، وعلم الاسلام ، والتاريخ الثقافي والاثنوغرافي للعالم الاسلامي ، والتاريخ الافريقي ، واللغة السامية وعلم الاجتماع . وله عدة مؤلفات شهيرة . وقد نشر حديثا كتابا مهما عن « منشورات سوي » بعنوان « Islam et Capitalisme » هذا الكتاب يعالج علاقة الفكرولوجيا « الايديولوجيا » (١) واثرها في النظام الرأسمالي . اذن ، امامنا كتاب لاخصائي يعرف ماذا يريد . وسوف ينشر كتابا اخر بعنوان « الاسلام والماركسية » . ويتالف كتابه من ٢٤٣ صفحة من القطع الوسط ، يضاف اليها ٥٨ صفحة تحتوي على اشارات وملاحظات ومصادر . اما بناء الكتاب فهو كما يلي : مقدمة وستة فصول : ١) طرح المشكلة . ٢) اوصاف الاسلام . ٣) الممارسة الاقتصادية في العالم الاسلامي (القرون الوسطى) . ٤) تاثير الفكرولوجيا الاسلامية في المجال الاقتصادي عامة . ٥) راسمالية البلدان الاسلامية المعاصرة والاسلام . ٦) خلاصات وابعاد .

***

١ ـ رودينسون ماركسيا وعالما

ان للكتابة العلمية غاية : هي البحث عن حقيقة علمية ، اظهارها ونقديمها . فحين يظهر اكتشاف علمي يبقى جانبا فترة من الزمن ثم يدخل اخيرا في التاريخ : أي في السياسة والحياة . غاية هذا الكتاب افادة القارىء بدرجة اولا . اي الانسان القابل للتغير . اذن الكلمة العلمية تريد ان تظهر ، ان تتجسد ، ان تقترن بالزمن اي بالفعل . وهي اذ تولد من الوعي تتجه الى الوعي الاخر . هذا التوجه يحتاج الى طريق. هذا الكتاب هو فتح طريق . اولا امام المثقفين العرب العازمين على فهم مصيرهم . فهو اذن يد عون تمد اليهم . وثانيا امام المثقفين الغربيين ، خصوصا الفرنسيين . فهو اذن نبيل في مرماه كاي كتاب فكري ناضج . ويتمتع البروفسور رودينسون بميزة حرم منها بعض مثقفينا ، ان لم نقل جميعهم . ذاك ان رودينسون قد تحرر ، لكونه خارج الدوران الاجتماعي العربي ، من بعض مشاكلنا العربية التي تمنعنا احيانا من فهم المعضلات فهما علميا صحيحا . فهو لا يعاني ازماتنا كما نعانيها . انه يرى ويفحص عن حقيقة رؤيته . يرى سير المجتمع فيحاول ان يحدد نهجه ، ويختبر معالمه ، نحن ، عربا نعاني ، لا نستطيع ان نتالم ونجسد الالم في نفس الوقت !. واذا عبرنا فان تعبيرنا يبقى انطباعيا لا يكشف عن الاسباب

(١) استعمل هذه اللفظة « فكرولوجيا » الاستاذ محمد عزيز الحابي وقد شاطرناه استعمالها .

الحقيقية التي ادت الى ظهور مشاكلنا الرئيسية ، أو اخرت تطورنا تأخرا ملحوظا ! مع ذلك نبقى في عالم الفرضيات ، ولم يبرهن بعد على ان المعاناة تمنع من فهم معنى المعاناة، ونحن لا نشارك بذلك الاستاذ رودينسون رأيه هذا في صحة تحرره ، اذ انه هو الاخر انسان مثقف ينتمي الى طبقة معينة في المجتمع الفرنسي ، انه ملتزم ، والتزامه هذا قد يسهل له فهم لمشاكلنا او يمنعه عنها . الا اننا نشاطره في ان الانتماء الثقافي الاوروبي ـ اي العقلاني ـ يساعده على ابعاد الاساطير التي تمنعه من فهم الحاضر . غير ان المثقف العربي بفضل تطوره الفكري ، ونضاله اليومي وتطلعه المستقبلي ، يتمكن من فهم الحاضر وخلق أفق فكري ارحب، بدلاً من الجمود امام عتبة الحاضر ، هذا الجمود هو في الحقيقة اساس كل تأخرنا ، الذي هو جمود بين الزمن وسيره ، فنحن لا نواكب سير التاريخ مواكبة شاملة . الا ان لدينا من يواكبه ، وعلى هذه الخطى الجديدة سنبني .

السؤال الاول الذي يطرحه رودينسون العالم : اين يمكننا وضع العالم الاسلامي في التصنيف العام لانظمة الانتاج وتوزيع الخيرات ؟ لقد أسيء كثيرا الى النشاط العلمي ـ الذي كان يسمى انذاك فلسفة ـ اذ كان دائما خادم الدين الامين . ولا تتغير المشكلة اذا جعلنا العلم خادم الدين بالامس ، خادما للفكرولوجيا السياسية التي حلت محل الدين .

وكتاب رودينسون هو عمل نظري قبل كل شيء . وكل نظرية تثير ما تثير من جدال وصراع وانشقاق . الا ان الجدال والانشقاق لا يبعثان على الاحتقار . فرودينسون اذ يهاجم الخرافات السائدة في عالمنا فهو لا يقصد الاساءة الى اي مخلوق كان : هو لا يقصد جرح احد . ونحن نؤمن بصحة غايته . فما يفعله ما هو الا وسيلة علمية لاختراق قشرة الواقع حتى يتصل « بفضاء الفكر » والجذور . كما يقول ابن خلدون في مقدمته . وكل كتاب نظري ، كل جمهور ، والاخصائيون في كل المجالات وحتى الذين يمارسون الحياة الاجتماعية ، هؤلاء جميعا يحتاجون الى دمج نظري Synthèse théorique هذا التاليف بين اجزاء النظريات هو غاية علمية مهمة وصعبة .

ورودينسون ليس عالما فحسب، وانما ينتمي الى زمرة فكرية ، زمرة يسارية ، ينتمي الى عجينة فكرولوجية Magma idéologique هذا الانتماء جعل منها ماركسيا . وهو لا يخفي ذلك ، بل يقول بوضوح العالم : هذه المعالجة ذات اتجاه ماركسي . وبهذا نلاحظ ازدواج شخصية رودينسون الثقافية : فهو عالم وفكرولوجي . فما هي علاقة العلم بالموقف الفكرولوجي ؟ لقد عالج عالم الاجتماع الالماني ماكس فبر في كتاب له ظهر عام ١٩١٩ « العالم ورجل السياسة » فيمكن مراجعته لتوضيح هذه النقطة الهامة . اما رودينسون فيوضح لنا ماذا يعني ان يكون عالم ما ماركسيا . لقد حاول طرح مشاكل هذه الدراسة « الاسلام والرأسمالية » على ضوء الفرضيات الاجتماعية التاريخية العامة التي نبدو له كانها سيرت حقل دراسة جديدة ما زال في بدايته . فماركس (كارل) قد قال اشياء كثيرة ، ومن السهل علينا ان نجد فيها كما نجد في الكتب الدينية (القرآن ، الكتاب المقدس ، وسواهما) ، ما يبرر مطلق فكرة . ففي مجال العموميات تسهل الاجابة . ودور العالم ، كما يبدو لنا ، يفترض عملية فكرة معقدة ، منها التوغل في ابعاد الاشياء وتقصي جذورها ـ أي جواهرها ـ . وماركسية رودينسون ليست بالماركسية التأسيسية . فثمة عدد لا يستهان به من المفكرين في العالم الشيوعي قد غفل عن مثل هذا التقصي وذلك لاعتماده العلاج الناتج عن الفكرة المزدوجة : العلاج التقليدي في المجتمعات التي تسيطر عليها « فكرولوجيا الدولة » . هذا الكتاب لا يرتبط اذن بما يسميه رودينسون « بالماركسية العملية Le marxisme pragmatiste التي هي بابة تشمل « الماركسية التأسيسية » وتتجاوزها . ما هي اذن ماركسية البروفسور رودينسون ؟ انها « الماركسية الفلسفية » السائدة في فرنسا وهي ليست « وضعية » ضرورة . فما يهمه فعلا هو المجال العلمي الذي يعتقد مفكر وفيلسوف محترم كسارتر انه الموجه الوضعي الحقيقي . فرودينسون لا ينكر ابدا وجود معضلات خاصة بالعلوم الانسانية وعلم الاجتماع .

فهل نوافق رودينسون على تقسيمه المذكور للماركسية ؟ ثمة ماركسيون يعتقدون بوحدة الماركسية : فلسفيا واقتصاديا وسياسيا .. واعتقادهم هذا فلسفي ايضا ومثالي . لكن الماركسية النظرية لا تنفصل عن الماركسية التطبيقية ـ ومنها ضرورة النضال الحزبي والانتماء للحزب الشيوعي خصوصا . الذي يعرف كنواة وطليعة ـ . الاجابة صعبة جدا. وبنظرنا اما ان يكون اليساري الماركسي شيوعيا او ان لا يكون ، هي المشكلة الصحيحة . والقضية ليست قضية نظرية ، وانما هي قضية طريق واتجاه . قضية اعطاء معنى واقعي للالتزام . اما جواب رودينسون فواضح : « انا لا اومن بوحدة الماركسية » وهو يضع الماركسية بين شولتين ( ) . فهو اذن لا يؤمن بوجودها الموحد . ويميز بين اتجاه فلسفي واطروحات سوسيولوجية ، ووحي فكرولوجي . ويؤكد وجود ترابط بين هذه العناصر المتضاربة في فكر ماركس . الا انه يمكن فصلها فصلا منهجيا . لذلك يعتمد على الاطروحات السوسيولوجية العامة التي اتى بها ماركس . او النظريات العامة عند ماركس . افضل :ما يسميه البروفسور موريس ديفرجه في كتابه « مناهج العلوم الاجتماعية » اي نظرية ماركس العامة في تركيب العالم .

ويصف رودينسون بالفكرولوجيا الماركسية : مجموع القيم التي وضعها ماركس في مقدمة عقيدته ، والتراث الماركسي ، هذه القيم التي يدوسها اشد الماركسيين حماسة في مجال التطبيق . ورودينسون ليس مدعيا ، فهو متواضع وكل ما يرجوه هو ان يكون قد خط طريقا جديدة للغامرين يشعون في الطرقات المظلمة ، واضعا ثقته في الشباب الثائر والجيل الصاعد : موعد كل افق .

٢ ـ أبجدية التساؤل

الكتابة تساؤل وحوار . القراءة ايضا . الا ان ابجدية التساؤل لا تنتهي كابجدية الشعر والفلسفة . العالم الثالث الذي حرم واستعمر فسلب ونهب هو الف هذه الابجدية . فعالمنا الثالث هذا يقع خارج خريطة العالم الصناعي المتقدم تكنيكيا والمسيطر بفكرولوجيته وسياسته. وسواء كان وقوعه هذا مفتعلا او مبتذلا فهو في كل الاحوال يؤكد اعتراف العالم الصناعي بتاخرنا . ونحن لا ننوي ولا نستطيع معالجة خصائص المجتمع الصناعي هنا ، لاننا نخرج بذلك عن موضوعنا الراهن . ثمة ملاحظة سائدة وهي محاولة « العالم الثالث » في اقتفاء اثر البلدان الصناعية والوقوف معها على نفس الخط امام المستقبل والتاريخ . لقد ظهرت الرغبة على سطح واقعنا ، الا ان محرك الواقع العربي مثلا ما زال مفمورا مغطى بزوائد ورواسب سقوطية وتخلفية . ولا ريب ان واجب ثوريينا لا يعدو ابراز هذا المحرك الذي هو الشعب وانعاشه وتغذيته حتى تكتمل خطانا فوق جسد التاريخ وفي دمه وضد عقمه الحالي.وقد حاول ادبنا ذلك ونجح على الاقل في الشعر ، بقي على علمنا ان يرتفع بخطى قوية ، خصوصا علوم الانسان . الا ان هذا المزج الغريب بين عالمنا الحالي والعالم الصناعي الذي نتوق اليه يفترض تغييرات شتى منها تغيير قيمنا وعاداتنا وبالتالي فكرولوجيتنا اي فلسفتنا الانسانية . فهل يصح القول بان فكرولوجيا الاسلام هي التي انتجت هذا التاخر ؟ ام ان بعض قيمنا قد اخرتنا ؟ وهل يجب علينا ان نضحي ببعض هذه القيم وان نستورد اخرى بدلا عنها ؟

وموضوع النقاش يدور حول المدارك الرئيسية التالية : التقدم الاقتصادي ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، الامة ، الاسلام ـ ونحن نضيف القومية الحضارية والانسانية التي تختلف عن مفهوم الامة . فكيف تترابط جميع هذه المدارك المتباينة معنى وابعادا ، المتضاربة تاريخيا ؟ ما هي الروابط والعلائق الموجودة بين الحيوية الاقتصادية والحيوية السياسية والفكرولوجيا الدينية والتراث الثقافي ؟ ان كتاب رودينسون يختص باختيار مدركين رئيسيين : الاسلام ، الرأسمالية . كيف ينظر الى الاسلام ؟ لكن من ينظر ؟

أ ـ نظرة المسلمين (١) لا شيء يتعارض في التراث الديني مع تبني مناهج اقتصادية حديثة وتقدمية ، (٢) ان التراث الديني هذا يتجه نحو

عدالة اقتصادية واسلامية . مثل هذه النظرة ينتج عن حب قومي او عن عاطفة دينية .

ب ـ العلماء الاوروبيون : منهم من يحب الاسلام ويناصره مؤيدا احدى النظرتين المذكورتين آنفا .

ج ـ العلماء الاوروبيون : منهم من يعادي الاسلام . ويعتقدون ان الاسلام اذ حرم على اتباعه المغامرة والمبادرة الاقتصادية ، ساقهم الى الركود الراهن .

وروديسون يتوخى في كتابه ابراز العلاقات الحقيقية بين المعتقدات الفكرولوجية والوقائع الاجتماعية من خلال دراسته لتطور العالم الاسلامي فاطية ، بما في ذلك عالمنا العربي . فهو يسأل : لماذا انتصرت الرأسمالية في اوروبا ولم تنتصر في البلدان الاسلامية ؟ ولماذا غزت الرأسمالية الاوروبية العالم الاسلامي بسهولة ؟ وهل نستطيع القول بان الاسلام قد مهد السبيل او يمهدها امام : الرأسمالية ، الاشتراكية او اقتصاد اقطاعي متأخر ؟ او انه يفتح الطريق لنظام اقتصادي جديد ؟ وابجدية التساؤل لا تكتمل ان لم نطرح السؤالين الرئيسيين : ١ ـ ما هي الرأسمالية ؟ ٢ ـ ما هو الاسلام ؟

للرأسمالية معنيان مختلفان :

المعنى الاول : الرأسمالية هي مجموع المؤسسات الاقتصادية منعزلة او متحدة . اما الذين يستخدمون مدرك « الرأسمالية » بهذا المعنى فانهم ينسون ان هذا المدرك يستخدم عنوة ويعمم على مجتمع بأكمله . ومظاهر الرأسمالية هي : الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، الشروع الحر Entreprise libre ، الفائدة الفردية ، الانتاج لسوق حرة ، اي لا تخضع لمراقبة الدولة وتخطيطها الاقتصادي ـ احكام المزاحمة ، والعقلانية الخ .

المعنى الثاني : الرأسمالية هي المجتمع بأكمله حيث تهيمن المؤسسات المتميزة بعقلية الرأسماليين ، ومثال ذلك المجتمع الصناعي الاوروبي .

ونلاحظ ان كلا التعريفين ليس « بحد ذاته » أكثر علمية من الاخر . ففي كل نقاش علمي : كل حر في اختيار تعريف خاص ، شريطة ان يكون ذلك التعريف متماسكا منطقيا وان يؤخذ به حتى نهاية النقاش . اما روديسون فيتبنى اصطلاحات عالم الاجتماع البولوني جوليان هوشفيلد في كتابه Studia o marksowskiej teorû Spoleczenstwa الذي صدر عام ١٩٦٣ ص ١٦٨ . وسيظهر قريبا بالفرنسية .

المعنى الاول : الرأسمالية هي « طريقة انتاج » اي نموذج اقتصادي ورأسمالي صناعي .

المعنى الثاني : القطاع الرأسمالي الذي يضم عدة مشاريع . مثال ذلك : روسيا السوفيانية في عصر « الاقتصاد السياسي الجديد »

المعنى الثالث : الرأسمالية هي عبارة عن «تكون اقتصادي اجتماعي». انها « نظام اقتصادي » . اما الرأسمالية الحديثة فقد نشأت اثر تكون الاشكال الاوروبية في القرون الوسطى ، بعد الرأسمالية التجارية ـ اي ابتداء من عصر الماركنتيلية ـ والمالية في القرن الخامس عشر . ولاول وهلة نجد هذه الاشكال عينها في بلدان الاسلام في القرون الوسطى .

ويقترح روديسون التعريف السهل التالي : الرأسمالية هي القطاع الذي يغطيه الرأسمال التجاري والمالي في مجتمعات « شبه رأسمالية » . فما هو رأي ماركس بتعريف الرأسمالية ؟ ان وجود قطاع رأسمالي كهذا وخصوصا « وجوده وتنميته الى حد ما » هو شرط ضروري لكن غير كاف اطلاقا لتنمية التكون الاجتماعي الاقتصادي الرأسمالي . فهل كان مثل هذا القطاع موجودا عندنا في القرون الوسطى ؟ لا بد ان تكون الرأسمالية « تجارة بالجملة ومستخدمة للعملة » على الاقل ، الى ان يتطور الانتاج وتسويقه . وعالم الاجتماع الالماني ماكس فبر يرى في كتابه « الاخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية » ان ما يميز الرأسمالية الغربية الحديثة هو ظهور « تنظيم رأسمالي عقلاني للعمل حر (شكليا) » الى جانب الاشكال العتيقة ، وهذا التنظيم العقلاني يقوم على فصل شرعي بين النشاط الاقتصادي والنشاط العائلي وظهور المحاسبة العقلية . ونلاحظ ان المجتمع البشري قد عرف قديما وسائل انتاجية متنوعة ادت الى ظهور الرأسمالية . ذاك ان المجتمع المتطور يحتاج الى رأسمال متراكم . وتراكم الرأسمال الثقافي والتكنيكي والعلمي هو من مميزات المجتمعات الانسانية واهم الاسباب التي تؤدي الى نشوء الحروب. (اشار الى ذلك غاستون بوطول في كتابه : ظاهرة الحرب) وهكذا لا نستطيع ان نتكلم عن مجتمع رأسمالي او قطاع رأسمالي اذا كان شكل التطور غير ديناميكي : مثلا ازدياد السكان او ازدياد عدد المواشي . اما اوروبا فقد اتخذت طابع المجتمع الرأسمالي بين القرنين السادس عشر والثامن عشر . وسؤالنا الثاني : ما هو الاسلام ؟ يعتقد معظم المسلمين انهم يعرفون معرفة صميمية اسلامهم ، ليكن . الا ان عالم الاجتماع يتساءل بعد ان يصف الاسلام ، ما هو محتوى الفكرولوجيا الاسلامية ؟

٣ ـ الفكرولوجيا الاسلامية أصلا ومحتوى

مهما يكن اعتقادنا في أصل الدين ـ هل هو الهي؟ هل هو انساني؟ـ فان هذه المشكلة ليست موضع تساؤلنا . فالمجتمع متباين التراكيب ، وهذا التباين يفترض شكلا تنظيميا للمجتمع . والدين الذي هو ايمان باستمرار قيم معينة ، لعب تاريخيا دورا مهما في تنظيم المجتمع وتوجيهه. والسؤال الذي يشغلنا اذن ليس ان نعرف اذا كان الاسلام يقنعنا فنؤمن به او لا يقنعنا فلا نؤمن . فالسؤال الذي يشغل عالم الاجتماع يتلخص برأينا في نقطتين : النقطة الاولى لكل دين اصل محتوى تاريخي وهو لذلك يخاطب افرادا ذوي الباب ، اذن يشمل الثقافة والحضارة تارة ، والسياسة والادارة تارة اخرى . والنقطة الثانية هي : ما هو اثر هذا الدين ، هذه الفكرولوجيا على تنظيم المجتمع ؟

القرآن والسنة هما المكونان الرئيسيان لمحتوى الفكرولوجيا الاسلامية . ونحن نسلم بذلك دونما جدال ، ذاك ان هذين العنصرين الرئيسيين لعبا دورا واضحا في تسيير التاريخ العربي ، طبعا الى جانب عناصر اخرى . وليس في نيتنا معالجة الايمان بالسنة او عدمها . ونحن نحترم مع ذلك موقف الفئات الاخرى التي لا تعتقد بذلك : الشيعة بشتى اضرابها . فالقرآن هو كلام الله المنزل وله سلطة مطلقة فيجب الاخذ به كما هو . اما الاحاديث النبوية فتمثل الحلول التي قدمها الرسول العربي الكريم طيلة حياته ، فهي اذن مرحلة تطبيقية اسلامية . فهل نجد في القرآن ما يدين الرأسمالية ؟ يعتقد البروفسور روديسون ان القرآن لا يحتوي على ما يدين الملكية الخاصة اذ انه ينظم عملية الوراثة مثلا. الا انه يدين الغنى الفاحش والتبذير .. فهل يدين ملكية وسائل الانتاج ؟ هذه الفكرة غير واردة البتة في القرآن . اما الاجرة فهي مؤسسة طبيعية لا يعارضها القرآن . واننا نجد ديانات تشجع على هجر امور الدنيا ، لكسب الآخرة . اما الاسلام فيحض على التجارة ، وينقد العمليات التجارية التي تبتغي الغش ، ويحرم تعاطي الاتجار اثناء العبادات . والاسلام يحرم الربا . فما هو الربا ؟ لا نعرف ماذا كان يمثل الربا في حقيقة الامر . وكلمة « ربا » تعني « تزايد » . ويبدو ان الآيات المتعددة التي تحرم الربا ، كانت تشير تارة الى المسلمين ، وتارة الى الوثنيين والمسيحيين واليهود . والاسلام يحض على الزكاة . فهل نجد في السنة شيئا واضحا عن الرأسمالية ؟ كلا . ويبدو ان الملكية الخاصة تتعلق بالارادة الالهية اكثر مما تتعلق بنشاط الانسان . وكان يوجد في البلدان الاسلامية اراض جماعية تملكها قبيلة او قرية ، هذه الاراضي غير معترف بها شرعية في القانون الديني . الا ان حق الملكية الخاصة محدود ببعض الاعتبارات كحق كل انسان في الحياة مثلا . والسنة تعتبر الاجرة شيئا عاديا تماما . وقد حرم الاسلام كل ما ينتج عن الرهان ـ الميسر ـ . والاسلام يلح على ضرورة العمل الحقيقي الذي يستحق وحده ان يكافأ . ويمكننا الخلوص الى القول : ان الاسلام في القرآن والسنة يشجع التجارة . والاسلام ينتقد التاجر غير المستقيم ويشجع المستقيم . كيف لا ، ونحن نعرف ان الرسول الكريم كان تاجرا نبيلا امينا مستقيما . والسنة تحرم بعض انواع التجارة . ويعتقد روديسون ان أسس تحريم الربا واهية ، اذ لا يمكن ربط تحريم الربا

بتحريم الميسر ، وكما قلنا ، فنحن لا ندري ما هي حقيقة الربا . ويبدو ان الربا كان في بادىء الامر كل فائدة تنتج عن قرض المال او المنتوجات الغذائية . وقد وضح تعريف الربا مؤخرا خلال تطور معقد ـ استثناءات منطقية وتأثيرات خارجية ـ لا نفهمه بوضوح . ففي التبادل التجاري ، يحلل الاسلام تعادل القيمتين المتبادلتين ، ويحرم ما خلاه ، فهل نستنتج مما تقدم ان غاية الاسلام في ذلك ، تحقيق مثال اعلى: العدالة الاجتماعية؟ يقول رودينسون : « ان الاوصاف القرآنية كانت تمثل مثالا اجتماعيا محمديا ومثالا اجتماعيا عند بعض الفئات والطبقات الاجتماعية ، في المجتمع المكي والمدني (نسبة الى المدينة المنورة) على الاقل » ص ٣٦ .

وهذا المثال الاجتماعي لا يدين اطلاقا الملكية الخاصة . ضد هذا الرأي ، نجد من عثر في القرآن على آيات تدين الملكية الخاصة ، من هؤلاء الباحثين ناصر احمد شيخ في كتابه :
« Some Aspects of the Constitution and Economics of Islam » 1961, p. 139 - 229.

ويلح على ضرورة تأميم الارض . الا ان رودينسون يرى أن تحريم بعض انواع الايجارات العقارية لا يعني ابدا تحريم الملكية العقارية الكبيرة. ويعتمد في ذلك على الحدث التالي : كان الرسول وخلفاؤه واصحابه يؤجرون اراضيهم ويتقاضون اجرها . ويورد جزءا من الآية ١٢٧ من سورة الاعراف : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده) والعاقبة للمتقين » . ويصر رودينسون على ان الاسلام لا يدين ابدا حق الملكية الخاصة . فالعدالة الاقتصاديه تعني في القرآن تحريم الربا لا أكثر . فهي لا تمس الفوارق الاجتماعية ، اذن هي لا تمس البنى الاجتماعية ولا النظام القائم على التفاوت الطبقي. ونجد في كل مجتمع قسما من السكان يناضلون ضد امتيازات الاخرين. هذه الحالة النضالية ظهرت منذ كانت فكرة الطبقات . ففي ايران ظهرت الشيوعية المزدكية القائلة بالملكية العامة لكل الخيرات . فالرسول كان يهاجم الغنى الفاحش والاغنياء ، والتعليم المحمدي لا يدين كالشيوعية ، الملكية كملكية ، وانما يدينها لاسباب دينية واخلاقية . ويعتقد رودينسون ان الرسول لم يكن اشتراكيا كما يعتقد غريم في كتابه « محمد » الجزء الاول ص ١٤ . لقد كان المجتمع الاسلامي يشمل عدة طبقات اجتماعية وانواع قومية ، عدة مدارس وطوائف تماثل الاحزاب المعاصرة التي نبت نظريات متنافضة . ونجد في التاريخ الاسلامي بعض التيارات التي تبشر بتحديد حق الملكية ، ومصدر هذه المفاهيم كان دينيا وعلمانيا .

ينفي البروفسور رودينسون ادعاءات الاديان التي تظن انها تكيف وتطور حسب حاجات المجتمعات البشرية . فالقرآن يحصر كل مشاكل العدالة الاجتماعية في العدالة امام الله ويلح على المكافآت ـ الثواب ـ غير الارضية بدلا من القضاء على الظلم الاجتماعي . هذا رأي رودينسون وهو حر في رأيه ، ويجب الا ننسى انه ليس مسلما ـ وهذا لا يعني ان على المسلمين ان يكتوا له العداء ـ وهو عالم وعلماني ليس رجل دين . اما الذين لا يشاطرونه الرأي ، فهم مدعوون لمناقشة ذلك . فرودينسون يعتقد ان المسلمين المتطرفين يتخيلون مجتمعا انسانيا مثاليا .

ونجد في العالم العربي من يعتقد بوجود بذور للاشتراكية في الاسلام والتاريخ العربي . ويوردون عادة ابا ذر الغفاري . ورودينسون لا يجهل هذا الرجل . فهو يلاحظ أن ابا ذر قد اثار فضيحة ، بعد عشر سنوات من وفاة الرسول الكريم ، اذ انه اتخذ من بعض الآيات وسيلة لتهديد الاثرياء الذين لا يدفعون الزكاة ، وقد الح ابو ذر الثوري على ان هذا القانون يشمل ايضا الحكام المسلمين كما يشمل عامة الشعب من مسلمين ونصارى ويهود . ومن الممكن ان تكون الاسطورة الشعبية قد ضخمت ثورية ابي ذر التاريخية ، فصار من الصعب علينا ان نفصل بين ما هو تاريخي ـ اي حقيقي ـ وما هو اضافي وروائي في هذه الشخصية النادرة . فهو رائد كبير : لقد لاحظ ان الاشتراكية هي ضرورة رئيسية من ضرورات الاسلام . فأبو ذر يعبر تعبيرا صحيحا عن احتجاج الفقراء على حرمانهم وطغيان الاغنياء والاقوياء . الا ان دعوته ـ وللاسف ـ لم تكن خلاقة ، اذ انه لم يتيسر لها ان تنتصر ، وان تغير النظام الاجتماعي العربي كما كان يأمل . اما اتخاذ حجة كنشر فتوى في جريدة الاهرام (٢٨ مارس ١٩٤٨) تقول « لا شيوعية في الاسلام » فلا تقنع ابدا ان الاسلام يعادي النظام الاشتراكي عداء قطعيا .

ونلاحظ ان بعض الطوائف الثورية التي كانت تقول بالغاء حق الملكية الخاصة لم تعمل بمبدأها هذا حينما تسلمت السلطة : ومثال ذلك الطائفة الاسماعيلية التي تسلمت الحكم في تونس ومصر . ومثال آخر : حركة القرامطة التي تحكم في البحرين وشرقي الجزيرة العربية قد انشأت نظاما تعاونيا بين الرجال الاحرار ـ الا ان هذه الجمهورية تملك عددا من العبيد السود . اين هي اذن هذه العدالة الاجتماعية المثالية في تاريخنا ؟ اذا كانت العدالة تعني انشاء دولة تحكمها القوانين الالهية وتعامل كل المؤمنين بنفس الطريقة امام قانون الله ، فهذا المثال لا يعني كالاشتراكية انشاء مجتمع بلا طبقات . وهذا هو الفرق بين الاصلاح الديني والثورة . فالفوارق الاجتماعية ليست افقية فحسب ، وانما هي عامودية ايضا . فالتمييز بين عبد وحر ، فقير وغني ، مالك وغير مالك هو اساس كل ظلم وكل استبداد . وهذا ما نجده مثلا في العربية السعودية .

بعد ان رأينا بأيجاز محتوى الفكرولوجيا الاسلامية ، لنر الان كيف كانت تدور واقعيا العمليات الاقتصادية في القرون الوسطى .

٤ ـ الاقتصاد العربي في القرون الوسطى

هل اخذ الاقتصاد العربي شكلا من اشكال الانتاج الرأسمالي ؟ لقد تطور القطاع الرأسمالي في عدة اوجه . الوجه البارز فيه هو ازدهار التجارة . فمكة التي نشأ فيها الاسلام وحينا ورسالة ، كانت مدينة تجارية بدرجة اولى ، ومركزا تجاريا رأسماليا . وكانت عناصر العبادات انفافية وطارئة وكان الاقتصاد « غير مندمج » ، غير مترابط الاواصر . وعد تحدث هـ. لامين ومارتان هارتمان عن « رأسمالية » المكيين . على أن مكة كانت نقطة صغيرة على سطح الجزيرة العربية التي لم تتجاوز مرحلة الاقتصاد المعاشي . ولما صار العرب سادة امبراطورية شاسعة دخل الاقتصاد في مرحلة انتقالية ـ جبايات الضرائب المفروضة على السكان والاراضي . وفي ظل الثورة العباسية (٧٥٠) انتشرت التجارة ومارستها كل الطبقات الاجتماعية . ومع العصر العباسي يبدأ العصر الكلاسيكي لتطور الاقتصاد في الامبراطورية العربية ، وتطور التجارة بدرجة اولى . والتجارة تعني شراء بضائع بسعر منخفض وبيعها بسعر مرتفع . فينتج عن هذا التبادل ارباح ينعم بها التاجر مبدئيا . وقد عرف عالم الاجتماع العربي عبد الرحمن بن خلدون « التاجر العادي » بانه التاجر الذي يبحث دائما وفي كل مكان ، عن كسب الدراهم بشتى الوسائل . وقد صنف التجار فمنهم : ١ » الخزان ، ٢ » الركاض ، ٣ » المجهز . فهل يؤدي كل هذا الى نشوء ثروة نقدية مميزة عن الثروة العقارية كما شاء كارل ماركس ؟ اجل ، لقد عرف عالمنا العربي في القرون الوسطى ثروات هائلة من نقود ومعادن ثمينة . وكان صاحب الاملاك لا يستطيع الاعتماد على ايرادها ليشبع حاجاته المفرطة. كان ايراده العقاري يساعده فقط على تأمين معاشه . وكان من الحسن شراء اراض في الحالة التي يترك فيها الراحل اولادا بلا ثروة ، غير قادرين على كسب حياتهم. والثروة التي يعتمد عليها هي الثروة المالية ، بنظر ابن خلدون ، اما تثمير المال في الارض فلا يمثل سوى جانب ثانوي من الثروة . وتطور التجارة في القرون الوسطى يدل على ان قسما من الانتاج كان يتجه نحو السوق. وظهر اختصاص الانتاج المحلي في الصناعة اليدوية والزراعة : كالقطن والجلود . وثمة اقاليم مختصة بتصدير الصابون والمراهم وماء الورد . وكان سعر السلع يختلف من اقليم لاخر ، فهو ضئيل في الاقاليم المنتجة ومرتفع في الاقاليم غير المنتجة لهذه السلع. وكان اقتصاد المعاش مهيمنا في عدد من القطاعات في كل البلدان الاسلامية ، كما كان في اوروبا في نفس العصر ايضا . والى جانب نمو الرأسمال التجاري ، نجد الرأسمال المالي الذي كان ينمو في نفس الاتجاه . والقرض الذي يعتبر طريقة عملية

ـ التتمة على الصفحة ٤٤ ـ

الاسلام والرأسمالية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢١ ـ

تطويرية للرأسمال المالي كان معروفا في المجتمع المكي . ويظن بعض المعممين ان تحريم الربا قد منع نشوء كل نشاط اقتصادي حديث عند المسلمين . وينعت رودينسون هؤلاء بكره العرب والعنصرية

ونجد ان بعض المدافعين عن الاسلام كحميد الله ، لم يجرؤوا على الادعاء بأن تحريم الربا كان معمولا به تماما في العصر الكلاسيكي . ويعتبر حميد الله ان هذا التحريم هو محاولة في « تأميم التسليف » . ونعرف ان المدرسة الحنفية تعتبر ان الضرورة تجعل حلالا ما هو محرم فعلا . وكانت العقيدة الحنفية هي عقيدة الدولة العثمانية الرسمية . اما المدرستان المالكية والشافعية فهما متشددتان مبدئيا . وكانتا تقبلان بعض الحيل . من هذه الحيل « بيع المخاطرة » وقد اخذ الغرب هذا المفهوم عن العرب فنجد في الاسبانية لفظ Mohatra وفي البرتغالية Mohatra وقد صدر عام ١٦٧٩ قرار عن السانت اوفيس يدين هذا العقد الذي يعتمد مبدأ « Contractus mohatra licitus est »

وهكذا استطاع العرب ان يمارسوا عملية قرض الاموال باضافة بعض الشكليات . ودفع تحريم الربا الى احتكار الدراهم ، فاستفاد من ذلك النصارى واليهود : اليهود في مراكش مثلا ، او اليونان وغيرهم من الاجانب في مصر . وكانت ترتفع نسبة الفائدة فتبلغ احيانا ٤٠٠ بالمئة سنويا . وينتمي معظم المقارضين الى الطبقة الوسطى . وكان العرب يأنفون من استخدام لفظ « ربا » الذي يعني « فائدة » ويفضلون لفظ « مربح » . ونجد عدة قوانين كان غرضها خلق مؤسسات للتسليف الزراعي في البلدان الاسلامية ، من اجل حماية الفلاحين من مخالب المرابين . وقد استنتج فقيه جزائري مسلم عام ١٩٠٨ : « من المعروف ان الربا قد خلق أحد الجراح الاجتماعية العظمى في الجزائر . وان ضحايا الربا هم المواطنون الجزائريون خصوصا ، ضحايا الاسرائيليين والاوروبيين وايضا ، وآسفاه ، ضحايا ابناء ملتهم من قبائليين وموزابيين وعرب ... »

ونجد بعض المسلمين الذين يقولون بأن ذلك عائد للاستعمار والسيطرة الاجنبية ، ونجد بعض الاقتصاديين المؤمنين بشدة التحريمات الاسلامية يعزون ذلك الى تأثير الاقتصاد الاوروبي الحديث . ويلاحظ رودينسون انه من السهل استنباط تحريم الربا في القرآن بطريقة استثنائية . نعرف ان الاسلام يشرع ويبين احكام الله في تنظيم الدولة الاسلامية . الا أن الفكرولوجيين لا يحكمون حتى في الاسلام . ففي الاسلام يعبر الفكرولوجيون عن مشيئة الله . من هؤلاء الفكرولوجيين يمكن تمييز :

١ ـ الفكرولوجيين الثوريين ٢ ـ الفكرولوجيين غير الثوريين .

ويورد رودينسون مثل الكنيسة الكاثوليكية في موقفها منذ قرن ، من مشكلة المستأجرين فهي وان بدت قاسية تجاه الشرور الناجمة عن سير النظام الرأسمالي فهي لم تصل بعد الى ادانة هذا النظام . وموقفها لا يتبدل كثيرا ازاء ادانة الاستعمار ، والرق من قبله .

ما هي طريقة الانتاج الرأسمالي بمعناها الصحيح ؟ ان طريقة الانتاج الرأسمالي في حالتها الاولية ، كانت ذرية ، اي انها قائمة على العلاقة الاقتصادية بين شخصين . وهذه العلاقة يسميها الماركسيون « الانتاج التجاري الصغير » . في القرن التاسع عشر ، كانت تسيطر هذه الطريقة . فكان العامل يبدو كطرف اقصى ، كشريك لا يجلب الا طاقة عمله . في القرن الثامن عشر ، اتخذ العامل مكانا معروفا في كل « جيلد » Guilde : شركة تعاونية عمالية في القرون الوسطى ، وتكون ايضا شركة تجار او اصحاب الصناعة اليدوية) . وعند العرب نجد ان الدرجة الاساسية هي درجة « الاسطى » او « المعلم » ، ودونها درجة « المتعلم » او « المبتديء » الذي لا يتناول اجرا . وقد يتطور المبتديء فيصير « صانعا » اي عاملا او خليفة كما عند الترك . والعالم العربي قد عرف الرأسماليين ، الذي يسمون عادة في أوروبا بالبورجوازيين . وقد اظهر س. د. غواتين ان طبقة برجوازية تجارية قد نشأت في العالم الاسلامي ابتداء من القرن الثاني للهجرة واحتلت مكانة اجتماعية مهمة ، وكسبت اعتبار كل الطبقات الاجتماعية الاخرى واعتبار طبقتها بالذات وفرضت فيمها القائمة على هذه الاعتبارات ، في القرن الثالث للهجرة وغدت بذلك عاملا اجتماعيا ـ اقتصاديا مهما جدا في القرن الرابع للهجرة . الا انها لم تستلم الحكم ابدا كطبقة اجتماعية . وفي القرن الحادي عشر للميلاد سيطرت طبقات الجنود ـ العبيد وحدت من نفوذ البورجوازية وجعلت دورها السياسي ثانويا ، بينما كان القطاع الرأسمالي يتضاءل .

ان كثافة العلاقات التجارية في العالم الاسلامي كانت تكون ما يشبه سوقا عالمية لا مثيل لها . وقد ساعد تطور المبادلات على تطور اختصاص الاقاليم العربية في قطاعي الصناعة والزراعة . وقد عرفت الامبراطورية الرومانية سوقا عالمية تماثل السوق المذكورة . و « السوق الاسلامية المشتركة » كانت واسعة للغاية ، وكانت رأسمالية جدا ، ذلك ان الرساميل الخاصة قد لعبت دورا كبيرا بالنسبة لدور الدولة . ويمكن شرح اتساع هذه السوق بانتصارات الاسلام العسكرية ، طيلة وجود الامبراطورية الاسلامية الموحدة ، وقوة الرباط الفكرولوجي الذي حال دون نشوء حدود مغلقة بين اجزاء الامبراطورية . ونحن نضيف الى هذين السببين اللذين اوردهما البروفسور رودينسون سببا اخر لا يقل اهمية عنهما وهو وجود نوى تجارية في الجزيرة قبل الفتح ، ولولا وجود هذه النوى لما استطاع الفتح العربي ان يخلق مثل هذه السوق التجارية .

هل يمكن وصف طريقة الانتاج في بلادنا بانها اقطاعية او آسيوية ؟ ان الكتب الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي التي تمثل عقيدة الدولة حاليا تضع العالم الاسلامي الكلاسيكي في هذه البابة . اما البروفسور رودينسون فيتحفظ كثيرا في وصفها بهذا . وهذا التحفظ مقصود . فالتكون الاقتصادي الاجتماعي الرأسمالي هو المجتمع ذو النظام الاقتصادي الذي تسود فيه طريقة الانتاج الرأسمالية . وماركس لا يتحدث ابدا ولا يكاد يلفظ كلمة « اقطاع » في النص الذي يحاول فيه تعريف ودرس التكونات شبه الرأسمالية . فهناك رأسمالية حيث يمكن استغلال الانسان للانسان استغلالا اقتصاديا . لكن الى اي حد يؤثر نوع الانتاج الرأسمالي على البنية الاجتماعية السياسية ؟ لقد ظن بعض المفكرين الماركسيين انهم لا يبتعدون كثيرا عن ماركس اذا استبدلوا لفظ « الاقطاع » بـ « طريقة الانتاج الآسيوية » . ويرى غوديليه ، الذي يتبنى رودينسون نظرته ، ان طريقة الانتاج التي عرفها ماركس كأمة مستكفية اقتصاديا كانت موجودة على الصعيد العالمي . وليس هناك اي داع لتسميتها كما فعل ماركس « آسيوية » او « شرقية » . ويمكن تسميتها « طريقة انتاج جماعية بدائية » .

وقبل ظهور الرأسمالية يمكننا التمييز بين طريقة انتاج جماعية بدائية وطريقة انتاج متباينة للغاية ، ترتكز بنيتها على الاستثمار ـ حيث تستغل أمة ما أمة اخرى . واذا كان لا بد من تسمية طريقة الانتاج الاسلامية ، فان رودينسون يقترح تسميتها « طرق الانتاجات الاستغلالية » نضيف اليها تارة « جماعية » وتارة « فردية » . ومن الرشد ان نتحدث عن « انظمة يسيطر عليها الاستعباد » لا عن « نظام استعبادي » او « نظام اقطاعي » . لقد تغير النظام الاقتصادي الاجتماعي الاسلامي في القرون الوسطى باختلاف الامكنة والازمنة . ففي الريف كنا نجد اولا « مجموعات فلاحية مستقلة من الخارج » . وكان الاقطاع يمثل الدولة في الشرق او يهيمن عليها . ونجد ثانيا طرق الانتاج المدني (من مدينة) . والرأسمالية انطلقت من تطور المدن . وحتى يتوصل التطور المدني الذي خلق نظام اقتصادي رأسمالي عليه ان يوجد كمية مهمة من العمال الاحرار التي يمكنه استخدامها على الطريقة الرأسمالية ، اي ان الرأسمالية لا تنشأ بدون استغلال طاقة العمل . ونجد ثالثا طريقة

الانتاج التي يسميها الماركسيون « اقطاعية متأخرة » اي استغلال الفلاحين من قبل اصحاب الارض . وهكذا نستنتج ان الاسلام لم يمنع نمو الرأسمالية ولم يحل دون ازدهارها . لكن هل نستطيع مع ذلك وصف المجتمع الاسلامي بالمجتمع العادل ؟ الآراء متضاربة واهمها :

١ ـ رأي المدافعين عن الاسلام : يعتبرون فترة حكم الخلفاء الراشدين خلال تسع وعشرين سنة فترة مثالية . الا اننا نلاحظ ان هذه الفترة لم تكن واضحة تماما . فالشيعة تختصر هذه الفترة بخمس سنوات اي طيلة حكم الامام علي بن أبي طالب ، الذي حكم في ظروف صعبة جدا . والسنة لا يتنصلون نماما من التهم التي وجهت الى عثمان ابن عفان . وهكذا يختصر هذا العهد المثالي باثنتي عشرة سنة خلال حكم الخليفتين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وهذه العدالة كانت نسبية ، فالسياسة التي نهجها الخلفاء كانت تثير اعتراضات وثورات وصراعات واسعة التي ادت عام ٦٥٧ للميلاد الى نشوء الانشقاق الاول في الاسلام : الخوارج ، وقد ظهرت في العالم الاسلامي حركات ثورية واخرى تبتغي الاصلاح كمراجعة مبادىء الاسلام والاضافة اليها . مع هذا لا نجد حركة واحدة عمدت الى تغيير جذري للمثال القرآني : المجتمع العادل . ونجد في المجتمع العربي ملاكين وناسا بدون ملك ، اثرياء وفقراء ، عبيدا واحرارا . ان الاسلام لم يعمد الى ادانة مبدأ العبودية كمبدأ : وجود العبيد حاليا في المملكة العربية السعودية ، ووجودهم سابقا في المجتمع الاسلامي .

٢ ـ رأي المسلمين « المودرن » : يعتقدون ان المبادىء الاسلامية تضمن سير المجتمع العادل من الناحية الاقتصادية . منهم حميد الله القائل بتأميم التسليف . ونلاحظ ان الواقع العربي كان بعيدا كثيرا عن محتوى هذا المثال ، ولم يزل كذلك في معظم البلدان العربية غير الاشتراكية .

وهكذا يخلص رودينسون الى القول : ان الدين غير قادر ان يفعل عملقيا ، فحيث يوجد صراع بين النظرية والتطبيق ، ينتصر التطبيق اجمالا . ونلاحظ من جانبنا ان ثمة حركة تعمل على تشكيك العرب بوجودهم الحضاري وبمدى طاقتهم على الابداع والتجدد ، فيصل العربي الى مرحلة يشك فيها بكل شيء : بقيمه وبثوريته وبمستقبله ، فيرزح تحت نير اليأس ، وبهذا يبلغ الاستعمار مآربه . من الذين قاموا بقفزات مزيفة نورد مثال تركيا : استبدال الطربوش بالبرنيطة والحرف العربي بالحرف اللاتيني . الا ان رودينسون بنظرنا ليس ممن يعملون على تشكيك العرب بوجودهم ، الا ان كل وجود يحتاج الى دراسة ونقد . وهذا ما يفعله رودينسون في كتابه هذا ، على ما نعتقد . لنر الان بوضوح اكثر الدور الذي لعبته الفكرولوجيا الاسلامية في المجال الاقتصادي .

٥ ـ الفكرولوجيا والاقتصاد

ثمة رأي مغلوط شائع في اوروبا عن النزعة التشاؤمية الغالبة على شعور العربي وسلوكه الحضاري . هذا الرأي يدعي ان مصدر تشاؤم العرب قابع في فكرولوجيتهم التي كان الاسلام في اساسها . ويدعى ان هذا التشاؤم هو الطرف المناقض لروح المبادرة والمغامرة التي يتميز بها الاوروبيون . ولعل مصدر خطاهم هو كون العالم العربي لم ينهج نفس النهج الذي اختطه اوروبا لذاتها . الا اننا نلاحظ ان عالمنا العربي لم يتخلف وحده عن نهج السبيل الاوروبية . فكيف يمكن القول ان البلدان التي لم تحذ حذو اوروبا وهي غير اسلامية ، قد كان الاسلام في اساسها ؟ بهذا يتضح لنا مدى خطأ هذا الرأي وانه ناشىء عن رغبة استعمارية لا اكثر . فما هي مميزات العقلية الاوروبية ؟ يعتقد ماكس فبر في كتابه المذكور سابقا « الاخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية » ان العقلية الاوروبية الجماعية تتميز بدرجة عليا من العقلانية . ويعتبر ان اوروبا قد انتجت الرأسمالية الحديثة ، اذ انها كانت اكثر عقلانية من كل النطاقات الحضارية الاخرى . وهكذا يبرز العقل كميزة رئيسية للنظام الرأسمالي . ويعتقد فبر ان البروتستانتية اثرت على النظام الرأسمالي بعقلانيتها . وينتقده رودينسون اذ من الممكن القول بأن البروتستانتية قد أثرت باتجاه الاقتصاد الجديد نحو الرأسمالية . لنر اذا كانت الفكرولوجيا الاسلامية غير مشجعة على اتجاه الفكر نحو العقلانية واذا كانت لا تشكل حاجزا اقوى من الحاجز الذي اقامته المسيحية في القرون الوسطى في وجه التطور الرأسمالي . وسنعرض الخطوط العريضة المميزة للفكرولوجيا الاسلامية لا اكثر . نعرف ان الفكرولوجيا الاسلامية ترتكز على القرآن والسنة كما ذكرنا . فما هي مكانة العقل في القرآن ؟ نجد ان الوحي الاسلامي وحي عقلاني . وهو لا يخلو من البينات ، فالوحي وهو اكثر الظواهر الدينية لا عقلانية ، معتبر في الاسلام كوسيلة يحتج بها . فالوحي القرآني لا يتنافى مع انواع الوحي السابقة له . ويتردد فعل « عقل » اكثر من خمسين مرة في القرآن وجملة « أفلا تعقلون » ثلاث عشرة مرة . وفي رأي الغربيين ان الاسلام دين عقلاني جدا ولا يمكن ان نتصور دينا اكثر عقلانية منه . اما الايمان فهو حالة لا عقلية ضرورية لكل دين وفكرولوجيا . الا ان الايمان على علاقة مباشرة بالايمان العقلاني ، والايمان القرآني اغنى من الاقناع العقلي بكثير . لنأخذ مثلا آيات واردة في سورة النجم « ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى » . حتى نلاحظ ان ثمة فرقا كبيرا بين الايمان المرتكز على رسالة عقلية ورسالة غير عقلية وغير مبررة . وكل هذا يدل على ضرورة تدخل العقل . والعقلانية العربية مظاهر شتى : فعقلانية قريش وتجارها ساذجة ، وعقلانية المكيين عقلانية بدائية . اما عقلانية الرسول الكريم فهي عقلانية حضرية . ويلاحظ رودينسون ان القرآن يكرس قسما كبيرا للعقل يفوق المسيحية واليهودية معا . فلا ريب أن الرسول الكريم قد جابه الفكرولوجيا الجاهلية التي كانت تمتاز بأيمانها بقوة القدر واستبدال هذا الايمان بأيمان اعمق هو الايمان بشخص الله . وهذا الايمان واع . ولا ريب ان شخصية الرسول الفذة نتم عن ايمان عميق بقدرة الله ، وأن الرسول رجل عمل ونضال . ولقد عمق الاسلام علاقة الدين بالعمل ، وهو ان لم ينه عن الصوفية المعتدلة ، فلم يدع ابدا الى صوفية متطرفة .

ان الفكرولوجيا القرآنية لا تمنع تطور الاقتصاد ، فهل تمنعها فكرولوجيا ما بعد القرآن ؟ اذا كان من الملاحظ ان هذه الفكرولوجيا قد تميزت بطابعها التشاؤمي فلا شيء يؤكد لنا ان مصدر هذا التشاؤم هو الدين الاسلامي ، او انها تشاؤمية لانها اسلامية بالذات : ان الفكرولوجيا تلعب دورا كبيرا في التطوير الاجتماعي اجمالا ، الا ان الفكرولوجيا العربية ليست اسلامية في كل محتواها . فما هو اسلامي فيها : القرآن والاحاديث النبوية الثابتة . فعدم ازدهار الرأسمالية في العالم العربي لا يعود سببه الى الاسلام بحد ذاته ، فيجب الا ننسى ان الحالة الاجتماعية العامة والحالة الثقافية الفكرولوجية تلعب دورا مهما في تسيير المجتمع وتنظيمه وتعطيه اشكالا خاصة به ، قد تخرج عن نطاق الاشكال التي اعطاه الدين اياها . ونظرة رودينسون هذه ، نظرة واعية صحيحة . وهو اول نقد جدي يوجه لعالم اجتماعي كبير كماكس فبر . فميزة الثقافة الاسلامية العقلية في القرون الوسطى واضحة جدا وهي تتفوق على عقلانية الثقافة الغربية في نفس المرحلة التاريخية . فنحن لا نستطيع الا ان نبدي اعجابنا واحترامنا لذلك المجهود العقلي الضخم الذي ابداه ألوف المثقفين العرب من اجل تطوير عقيدة ديونتولوجية : « déontologie » و « déon - onto » تعني ما يجب فعله وديونتولوجيا هي علم ما يجب فعله ، وهذا دليل على مدى اهتمام العرب باستطلاع المستقبل والتبصر بتطور الامور والاحداث . واما النموذج « العقلاني » الذي يصف ماكس فبر به الدولة فهو نموذج تجريدي لا اكثر . فالدعامة الاولى التي تقوم الدولة الحديثة عليها هي : الرأسمالية والقضاء . والدعامة الثانية هي الرأسمالية والاخصائيون . والدعامة الثالثة هي الرأسمالية والتكنيك . ونلاحظ ان العرب قد تفوقوا على الغرب تكنيكيا في العصور الوسطى . ثم تفوق الغرب بعد ذلك . ونستنتج ان الاسلام ليس سبب هذا التفاوت اطلاقا . فالسببات هي خارجية وسياسته اكثر مما هي فكرولوجية . وسبب التشاؤم الشرقي

ليس دينيا وانما هو سياسي واقتصادي . فالاسلام قد دعا باستمرار الى العمل وحث عليه في القرآن الكريم وعلى لسان الرسول العربي العظيم. فالاسلام خلق دولة ، وهو ليس منظمة كالمسيحية تحاول ان تراقب الدولة وان تؤثر عليها ـ السيطرة . فالتوكل على الله عند المسلمين هو علامة قوة لا ضعف ونابع من وعي عملي ويقيني . فعند المسلم يقترن العمل الخلاق بالثقة بالله . فسبب تشاؤم الفلاحين العرب ليس دينيا وانما ينبع من واقعهم المعاش ومن شروط حياتهم ، من عجزهم التكنيكي وضعفهم امام قوى الطبيعة . وهناك درجات في اليأس والتشاؤم . وهكذا يبرهن البروفسور رودينسون من خلال دراسة ثاقبة للعالم الاسلامي على مدى خطأ نظرية ماكس فبر التي اوردناها سابقا . وبعد ان راينا علاقة الفكرولوجيا الاسلامية بالنظام الاقتصادي وعدم تأثيرها على تأخيره ، لنر الان وضعية العالم العربي المعاصر وموقفه من الراسمالية .

٦ ـ العرب والرأسمالية

لا يمكن القول بان اقتصادا ما رأسمالي ان لم يسيطر عليه القطاع الراسمالي . وهذه السيطرة تفترض ضرورة وجود صناعة حقيقية . ونلاحظ ان الصناعة حديثة العهد في بلادنا وهي لا تشكل قطاعا كبيرا بالنسبة للزراعة والتجارة . فالبلدان العربية لم تبلغ بين ١٩٥١ ـ ١٩٥٩ مستوى التصنيع الفرنسي في القسم الاول من القرن التاسع عشر . والسؤال الرئيسي الذي نطرحه : ما هو اصل القطاع الرأسمالي في الوطن العربي ؟ هل هو داخلي ام خارجي ؟ وثمة سؤالان متممان للاول وهما : ٢ ـ ما هو دور الاسلام في نمو الراسمالية ؟ ٣ ـ ما هو نهج الرأسمالية العربية المعاصرة ؟

لقد انتشرت الصناعة في مصر بواسطة الدولة في ظل محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩) ، هذه الصناعة صارت صناعة الدولة ابتداء من ١٨١٦ . وقد ادت الليبرالية الاقتصادية الى انبعاث الصناعة اليدوية واغلاق المصانع الكبرى امام مزاحمة المصانع الكبرى الاجنبية . وفي عام ١٩١٧ ، ظهرت لجنة تجارية صناعية غايتها خلق صناعة مصرية . وفي عام ١٩٢٠ اسس طلعت حرب بنك مصر . اما الاقليم السوري ـ سورية ولبنان ـ فقد عرف صناعة الحرير (لبنان) وكان مرتبطا بليون سوفا وراسمالا . اما في سورية فقد كانت الصناعة الكبيرة بين ايدي الاوروبيين ، وكان السوريون يكتفون بالصناعة اليدوية في منازلهم . ويعتبر طلعت حرب بطل الاستقلال الاقتصادي المصري . وقد طرح زياغو كالب الشعار التالي : أمة تركية ، دين اسلامي ، حضارة اوروبية ونتساءل : هل يمكن هذا المزج ؟ وما هو مؤداه ؟ ان التجارب برهنت على صعوبة الاخذ بمثل هذا الشعار ، بدليل حاجات العرب الى استقلالهم وتخلصهم من الاستعمار التركي والاوروبي .

واذا كان الشرق قد عمل على تقليد الغرب في الصناعة ، فان هذا التقليد اخذ طابعا خاصا ، لعبت فيه الحضارة الشرقية دورا مهما ، خاصة عبقرية الشعب العربي . فدور محمد علي كان مهما للغاية فقد اصبحت مصر في طليعة الثورة الصناعية . وتدخل الاستعمار فحال دون تقدم الصناعة في مصر ، ودون تقليد الدول الشرقية لها في هذا المضمار . فقد كان من الممكن تنمية رأسمالية صناعية وطنية كما في اليابان الا ان اوروبا الاستعمارية وقفت في الطريق . وقد اشار الدكتور انور عبد الملك الى ان الراسمالية الزراعية ذات الطابع الاستعماري والاقطاعي قد سادت في مصر بين ١٨٤٩ (وفاة محمد علي) و ١٩٥٢ (قيام الثورة العربية في مصر) . ونما اول ما نما الرأسمال المصرفي الاجنبي خصوصا ، ثم عمد الى تسويق الانتاج الزراعي . فكانت الراسمالية الزراعية وليدة تزايد السكان (الضغط الديموغرافي) . الا انه لا يمكن البرهان على ان الرأسمالية العربية قد نتجت عن تقليد خاص لنموذج اوروبي ـ اميركي ، ولا على ان البلدان الاوروبية قد انجبت تلك الراسمالية . هل للدين الاسلامي اثر على نشوء الرأسمالية العربية ؟ لقد ميز الاسلام بين نوعين من البدع : البدعة الحسنة والبدعة السيئة . فالاسلام قد حرم مثلا صناعة المشروبات الروحية ، الا انه لم يحرم التصنيع . ويتميز المذهب الوهابي بادانته ادانة شديدة للبدع . ان العوامل الدينية كتحريم الربا والميسر قد لعبت دورا ما ، الا ان هذا الدور لم يحل واقعيا دون تطور الاقتصاد . فلماذا لم يتطور الاقتصاد الراسمالي في الصين واليابان حيث لا يلعب التحريم الاسلامي هذا اي دور ؟ اذن هناك اسباب غير دينية تؤدي الى التاخر الاقتصادي والتكنيكي والحضاري كالاستعداد القومي ، والمستوى العلمي والتنظيم الصناعي وفن ادارته ... مشكلة التاخر هي مشكلة اقتصادية وليست دينية . وقد كان دور الفتاوى ثانويا في التطوير الاقتصادي . فالفتاوى التي تحرم الفائدة كانت تصدر في نفس الوقت الذي تصدر فيه القوانين التي تحدد نسبة الفائدة ، وكان المصلحان العربيان الكبيران محمد عبده ورشيد رضا يعرفان ان التطبيق قد سبق الدين والنظرية . ولا ريب ان الدينين المسيحي والاسلامي قد اكتشفا في الراسمالية بعض نتائج تناقض المثال الديني . ان مسيري الحركة الفكرولوجية (١) (Les cadres du mouvent idéologique) الدينية يزعمون ، بعد ان تفرض الحياة الجديدة نفسها اثر ثورة جذرية بانهم يملكون طاقة كبيرة على التكيف . وهناك دولة تعد بنظر رودينسون من اكثر بلدان العالم تأخرا لا تزال تمنع الربا ، هذه الدولة هي العربية السعودية المتاخرة ثقافيا واقتصاديا . الا ان العربية السعودية تفعل ما هو اسوا بنظر الدين والحكام اذ يحرمون الفائدة في الداخل يقرضون البلدان الاجنبية اموالا ضخمة مقابل فوائد مرتفعة نسبية . فقد نشرت جريدة اقتصادية بيروتية موثوق بها Le Commerce du Levant ان شركة Saudi Saama Tarding Co. في جدة التي يملك الملك سعود قسما منها قد عرضت في ٣١ آب (اغسطس) ١٩٦٠ على TokioMetropolitan Bank قرض مبلغ ١٠٠ مليون دولار لمدة خمس وعشرين سنة مقابل فائدة نسبتها ٨ بالمئة. وحاليا تجد ان الاسلام لا يعارض التطور الاقتصادي الراسمالي. لكن هل اختط الاسلام طريقا خاصا نحو الراسمالية ؟ ان علم النفس الاقتصادي لم يصل بعد الى نتائج مهمة عن السلوك التبايني حسب تباين الامم في المجال الاقتصادي . هل للراسمالية الاسلامية خصائص مميزة ؟ يعتقد الاقتصادي الفرنسي جاك اوستروي « ان العقلية التقليدية في الاسلام لم تشجع نمو الراسمالية » وينتقد رودينسون هذا الاقتصادي الشاب موضحا ان رؤيته مثالية لا تطابق الواقع العربي . ان الشرق يمر الان في مرحلة قاسية . اذ ان التصنيع يستنفد طاقات العمال ويحرمهم من اشياء كثيرة قد حرم العامل الاوروبي منها قبلهم . وقد ازدهر عمل الاطفال في الراسمالية الاسلامية كما ازدهر في الراسمالية المسيحية . يجب البحث عن جذور مشاكل التصنيع خارج الدين ، ويجب الا نقف عند مرحلة ركود معينة لنعلل من خلالها كل شيء . فالتوكل على الله لا يميز الدين الاسلامي والتكاسل ليس من الاسلام في شيء . الادعياء

(١) لقد ساد استعمال لفظ « كوادر » بالعربية خطأ ، لان مستعمليه لم يكن لديهم الوقت الكافي لفهم معنى لفظ Cadre بالفرنسية . ففعل Cadrer يعني مسير وتعبير « cadre administratif » يعني : رهط يكون نواة التنظيم فنقترح ترجمة Cadres بـ «مسيرون».

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

الذين ظنوا ان الاسلام هو اصل كل مشاكلنا العربية فقد خلطوا بين « ردود الفعل » الناجمة عن مرحلة انتقالية ـ حيث ينفتح مجتمعنا فجاة وبضراوة على تكنيك جديد وبنى جديدة وقيم مستوردة من الخارج وغالبا يفرضها الاستعمار ـ و « ردود الفعل » الناجمة عن امتزاج ثقافتين مختلفتين اختلافا جذريا . وهكذا يبدو لنا ان رودينسون ، عالم الاجتماع الواعي ، قد غاص فعلا في اعماق مشاكلنا وتوصل الى فهمها اكثر من سواه ، بفضل تجربته العملية وموقفه الرصين النبيل ، فهو اول من انتقد علميا الاقتصاديين وعلماء الاجتماع الغربيين ـ خصوصا ماكس فبر وجاك اوستروي ـ الذين يحتقرون التاريخ الحقيقي احتقارا مشينا ، فالاسلام قد حض على التعاون بين المسلمين وسر نجاحه قابع في هذا الترابط الفكرولوجي العجيب الذي كان يجعل من اتباعه بنيانا مرصوصا وصفا واحدا .

كيف نستطيع شرح اتجاه العرب نحو وحدتهم ؟ لقد حقق العرب معجزة يشهد لها كبار المستشرقين كجاك بيرك الذي يرى في تاريخنا المعاصر مفاجاة وقفزة سمحت لنا بتجاوز عصور اوروبا البورجوازية . وهل هناك علاقة بين المباديء الاسلامية واتجاه العالم العربي حاليا نحو الاشتراكية ؟ ان هذه العلاقة تفسر على ضوء حاجات الانسانية الصميمية التي عبرت عنها معظم الديانات تقريبا . فاذا لم يكن هناك تاريخيا طريق اسلامية واضحة نحو الرأسمالية ، فان المستقبل سيبرهن على ان العرب قد شقوا لانفسهم طريقا خاصا نحو الاشتراكية . فقد قال الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفته الشعبية الاصيلة ، بما معناه ، ان التحريض على كسب « ماتش فوتبول » لاي اسباب كانت دينية ام اخلاقية يحتم تحضير اللاعبين للخوض في هذا اللعب ، هذا التحضير يحتم علينا كسب معارف تكنيكية منفصلة عن الاخلاق . وقد اورده رودينسون صفحة ١٩٣ . اذن لا بد من تهيئة الثوريين حتى يلعبوا وينتصروا . لقد شق العرب لانفسهم طريقا ثوريا ، وثمة اعداء في الطريق ، الا ان امام الثورة العربية الاشتراكية افقا كبيرا فما هو مدى هذا الافق ؟

٧ ـ العرب والافق الحضاري

لقد راينا ان الاسلام قد اثر في نفوس الناس الا انه لم يؤثر كثيرا في حياتهم الاقتصادية . فقد ظهر ان العلاقة بين الاسلام والنظام الاقتصادي سلبية على صعيد البنى الرئيسية . فالقرآن الكريم ليس كتاب اقتصاد او سياسة او كتابا عاديا . انه يفتح للانسان افقا وجوديا ويوسع فضاءه الفكري والروحي . فقد كان الاسلام ومؤسسوه رجال اعمال ، كما كانوا مبشرين ومناضلين . وقد كان تغير الظروف الاجتماعية في اساس الفتح العربي ، وكانت وضعية البلدان المجاورة ، السياسية والاجتماعية قد مهدت امام العرب السبيل الى تحقيق انتصارات خالدة . وقد اثرت الوضعية الاقتصادية ، فيما بعد ، على الفكرولوجيا العربية وطورتها . فالفكرولوجيا بحد ذاتها تظهر على شكل « فكرولوجيا من اجل المجتمع » وتتغير تواصليا . اما جوهر العقيدة الاسلامية فلم يتبدل تقريبا منذ نشوء الاسلام . ان النشاط الفكري الخالص لا يشرح كل شيء كما اعلن ذلك بعنف هنري كوربان مثلا ، فالمجتمع لا يبنى على « مدلولات » بل على « مهمات جوهرية » ، لا يستطيع المجتمع ان يستمر بدونها . والمجتمع كالفرد : يحاول ان ينبعث ويجدد وجوده اكثر من جوهره . والعلاقات التي تنشا عن تنظيم هذه المهمات لها اثر كبير على الحياة الاجتماعية . فالقضية تنحصر في مدى مقدرتنا على الفعل لا اكثر . فالعقل الانساني لا يفرض قانونه ، بل يقدمه الى معطيات تقادمه. فالمشكلة الرئيسية ليست ان نعرف ايهما اهم الدين ام الاقتصاد وانما ان نعرف اي شيء يوجه التطور الاجتماعي والتاريخ البشري وكيف ؟ فحتى نغير المجتمع يجب ان نؤثر على القوى الاجتماعية ، يجب ان نخلق مؤسسات تمنح لبعض القوى الاجتماعية المقدرة على الفعل ، يجب التغلب على الصعوبات الطبيعية والاجتماعية حتى نتمكن من السيطرة عليها ، وبالتالي من توجيهها .

فالخلاصة التطبيقية التي وصل اليها الماركسيون هي التالية : لا بد ان يسبق التغير الاجتماعي تغير في العقليات الاجتماعية . وهذا التغير يفترض تدخل التربية والتعليم . ففي المجتمع فكرولوجيا فكرية وفكرولوجيا طوبائية . اما الافكار فمنها الفعالة ومنها غير الفعالة .

ليس هناك اقتصاد راسمالي ذو طابع ديني او قومي . فالراسمالية تقوم على الفائدة مهما اختلفت الاديان والقوميات . اما الجماهير فلا تسأل عن رأيها في المجتمع الراسمالي . ان روح الراسمالية لا تولد من لا شيء . انها موجودة عند فئة من الافراد . اما الاوروبيون الراسماليون فيتهكمون على البلدان المستعمرة ـ التي سموها متخلفة فيما بعد ـ ونعتوها هزءا بعجزها عن المبادرة والخلق والتجدد . طبعا مصلحة المستغل تملي كل هذا . ان الاشتراكية تحتاج الى فكرولوجيا محركة ، فكرولوجيا خلاقة واقعية ، لا فكرولوجيا طوبائية ، تحتاج الى فكر فعال ، لا الى فكر متحفي . فكل بناء اشتراكي يحتاج الى مخطط فكرولوجي . ان العالم العربي خاص . الا انه ليس شاذا . فهو لا يتجاوز بتاريخه القومي التاريخ الانساني . مستقبلنا العربي هو مستقبل نضالي . فالبناء الاشتراكي لا يقوم بدون نضال ودون فكرولوجيا بناءة ونافذة . ويلاحظ رودينسون ان الفكرولوجيا القومية كالفكرولوجيا الدينية تفسح المجال للرجعيين الانتهازيين بان يبرزوا على سطح التاريخ كافضل المناضلين في سبيل الدين ، وهم ليسوا كذلك . والاشتراكية وحدها تستطيع ان تظهر كشرط اساسي لضمان قوة الامة العربية وسعادتها .

يبدو مما تقدم ان البروفسور مكسيم رودينسون كان عالما في كتابه الغني بالملاحظات ، وكان حكيما يعرف ماذا يريد ، وعما يبحث . وهو واع لانه ذو موقف . فكتابه يحتوي على نقد لاهم نظريات علماء الاجتماع والاقتصاد . وهو بحث عميق في الدين وعلاقته بالانسانية الحية المتجددة . وهو يدل على عمق كاتبه واصالة وعيه ونظرته ومدى تبصره واخلاصه للعلم الذي يتمم النضال الانساني ويعمل على تحريره. وهكذا يسد رودينسون ثغرة كبيرة في المكتبة الاوروبية ، ويفتح نافذة حقيقية على عالمنا ، خارج النافذة ، خارج البيت المنهدم : تصعد رائحة الارض والسواعد ويرسم العمل طريق التاريخ العربي ، الطريق التي ستؤدي الى اتساع الافق الاشتراكي العربي .

جامعة ليون ـ فرنسا — خليل أحمد خليل

اطلب منشورات

دار الاداب

في الاردن

من

المكتب التجاري

لصاحبه محمد موسى المحتسب

القدس ـ تلفون ٤٤٦٥

عمان ـ شارع الملك حسين ـ مقابل بنك انترا